

الواضح الذي ينبع من هذه المجموعة ، فان توفيق فياض لا يسقط في الرومانسية . يحاذيها ، ويلتجئ الى الرموز التي تستطيع ان تحمل نوازع شعبه وآماله ومعاركه النضالية .

٣ - البعد الانساني للفعل التاريخي :

في قصة « ليلة القدر » يتوحد البعد الانساني بالفعل التاريخي بشكل مذهل . فالنضال ليس مجرد رفع شعارات سياسية او تعلق شامل بالارض انه بحث عن الانسان من خلال النضال والارض . فالارض تكشف في اعماقها عن الانسان الرابض هناك . ففي ليلة القدر تقدر سنية ابنة السابعة عشرة ان تبحث عن نور عينيها بيديها . فهي فقدت البصر رغم جمال عينيها ولا تزال منذ سبعة عشر عاما تنتظر ان يرد النور الى عينيها بقدره سا . لكنها تكتشف من خلال ليل الانتظار الطويل ان لا شيء يرد لها بصرها سوى نضالها هي : « ما عدليس عالصبر يا ستي ٠٠٠ وان ما فرجتها انا محالي مش رح الله يفرجها » ، هكذا تخاطب سنية جدتها التي تدعوها الى انتظار الفرج وتخرج الى الطريق باحثة عن الضوء . في هذه القصة يصل الرمز الى غايته ، فاذا كان الرمز هو محاولة اعادة تصوير الواقع بواسطة رموز واتمية تسهل اقامة العلاقات المعقدة بينها ، فان قصة ليلة القدر تصل الى هذه الرؤية النافذة . فسنية اليوم أصبح عمرها خمسة وعشرين عاما ، لكنها لا تنتظر . انها تقاوم في الشارع في سبيل عينيها ، في سبيل جراح أم الخير ودماء امين سمعد المثورة على طرقات حيفا .

قصص توفيق فياض من خلال ابعادها الثلاثة ، تحاول الكشف عن العمق الانساني ، عن التوق الى الجدية في علاقة الانسان الصراعية بالحياة . من هنا فجميع ابطاله الرمزيين يكشفون في ذواتهم عن انسان يطلع بحدة الى الخلاص . وفياض يتوجه الى وجدان جماعي . الى الوجودان الفلسطيني المناضل . من هنا فمخاضاته فلاحية . وحين يصل الى البرجوازية فانه يصور فساده واستوطانها امام ارجل المحتل .

الفعل التاريخي الذي تدعو اليه هذه المجموعة

هو فعل انساني في الاساس . فالتكوم حول الارض الفلسطينية لا يجد معناه الحقيقي بمعزل عن مسن الانسان الفلسطيني الذي يصنع هذه الارض بجراحه وعرقه . هكذا لا يسقط فياض في التعليمية والمباشرة . انه يبحث عن الانسان فيما هو يبحث عن الارض ، وصوت الانسان يأتي من جراح ام الخير وتأوهات حمدان الراعي ومحبة قاسم للكلب ودخول امين سمعد في البحر الجماهيري الذي يصير وقع اقدامه على الارض نشيدا لهذه الارض .

ان السموت الفلسطيني القادم الينا من الارض المحتلة في هذه المجموعة القصصية ، هو سموت ناضج غنيا . فالقضية رغم مباشرتها وحرارتها لا تحجب الجهد الابداعي الذي تبذله ريشة الكاتب . فتعدد الاصوات داخل القصة الواحدة ، والقدرة على ولوج اللاواقعية دون الوقوع أسير النظرة الاحادية للامور ، بمعنى دون الوقوع في متاهة اعادة ترتيب الامور بشكل غير واقعي ، وبالتالي الابتعاد عن الارضية التي عليها يقف العمل الفني الثوري ، ثم وبالاخص القدرة على الدخول في العالم الفلاحي دون الوقوع في الرومانسية الجاهزة التي تستطيع ان تقضي على العمل الفني في مهده . كل هذه المؤشرات تدلنا على الطاقات الكامنة خلف القصة القصيرة التي لا تستنفد . فاذا كانت حياتنا العربية لا تزال ، في مختلف ابعادها الثقافية والسياسية والاجتماعية ، أسيرة عدم القدرة على التحرك الثوري الجذري بمعنى عدم القدرة على اعادة فهم تراثنا الثقافي ورسم الابعاد السياسية والفكرية للحركة النضالية الواقعية في حركتنا الثورية العربية ، فان القصة القصيرة قادرة عبر ايجازها والتقاطها للجذريات ، ان تطل على مشارف كليات حياتنا النضالية العربية دون الوقوع اسيرة التعميمات .

ان شهادة « الشارع الاصفر » شهادة مليئة بالغنى والدلالات . وتوفيق فياض استطاع بتجربة فنية متواضعة ان ينقلنا الى اعماق الجرح الفلسطيني ، الى اعماق وجدان الذين بقوا في الفيتو العربي يقاومون ويموتون .

أ. خ.